الخطاب والنص في أدبيات المؤسسة التربوية

أحمد يوسف

كلية الآداب/ جامعة وهران

تحبذ المؤسسات التعليمية بمختلف أطوارها اصطناع مصطلح النص (النصوص) على مصطلح الخطاب. لأنها تعتمد على مرجعية تربوية تحتكم إلى تراث اللغة الكتابة بدل اللغة المنطوقة. وبخاصة الآثار الأدبية قديمها وحديثها وبهذا المفهوم لا يتوافر مصطلح الخطاب على حظوة كبيرة في تداول المربين وكل من يضطلعون بالعمليات التعليمية؛ وبخاصة أن هذه البحوث اللسانية الحديثة والنظريات النقدية والجمالية لم تعرف طريقها إلى البرامج الجديدة التي تنكب الهيئات التربوية المختصة على وضعها. فهي لا تحتكم في الغالب الأعم إلى ما ينتهي إليه الخبراء من نتائج في مثل هذه الميادين.

ومن هنا لا بد من الإشارة إلى سلطان الفيلولوجيا على سلطان اللسانيات التي قطعت أشواطا بعيدة في الدراسات الغربية من منطلق أن اكتساب اللسان يقوم في المقام الأول على الشفوي قبل المكتوب، ولكن تبجيل الكتابة مرده إلى الأبحاث الفيلولوجية وحتى البلاغية. لهذا كان للنص هيمنة على الخطاب في الكتب المدرسية وفي استعمالات المربين والمدرسين؛ ولعل النص كان يقوم بدور تربية الأذواق واكتساب المهارات اللغوية التي هي مقصد من مقاصد التعليم.

وقبل هذا ينبغي التساؤل ما إذا كنا نتكلم اللغة المكتوبة أم اللغة في وضع الكتابة؛ لأن الحديث الارتجالي لا تخضع بنيته التركيبية والدلالية إلى المستوى نفسه الذي يكون عليه الحديث المكتوب؛ وتكاد مسألة اللغة المتكلمة ذات الانتشار الواسع في استعمال الأفراد والجماعات تهدد كيان اللغة (الفصحى) ذات العراقة التراثية والقداسة الدينية والهيبة الحضارية.

لقد تعالت عقيرة بعض الدراسات للمطالبة باستبدال اللغة العادية (العامية) بدل اللغة الفصحى نظرا للتأثيرات السلبية في المجالات التربوية؛ حيث ترى بأن هناك ازدواجية في التعامل بالعربية، فتستعمل الفصحى داخل المؤسسات الرسمية مثل المدارس والجامعات والمساجد والأجهزة العليا للدولة التي تحكمها قوانين وتعليمات صادرة من أعلى هرم السلطة. أما في البيت والشارع والمؤسسات الإعلامية فللعامية سيادة على الفصحى. إن هذا الواقع لا ينبغي التغافل عنه وتجاهله، كما لا يجوز اتهام كل من ينادي بإثارة هذه الإشكالية ومدارستها بأنه يتآمر على العربية. فمواجهة المشكلة بأسلوب التعامة حينما تدس رأسها لما يداهمها الخطر لا يخدم العربية في شيء.

هناك قصور يلاحظه المختصون ويتحدثون عنه سواء أكانوا تربويين أم أدباء أم نقادا؟ ويتمثل في أن المدرسة لا توفر متسعا من الهوامش للطفل وللمتعلم لإنتاج النصوص التي هما في مسيس الحاجة إليها، ولا تساعده على الأقل في اختيار النصوص التي تسهم في بناء ذوقه العام، وتشيد أفق انتظاره الذي يساعده في عمليتي الإبداع والقراءة على حد سواء.

إن أول ما يحتاج إليه الطفل القدرة على الأداء الكلامي، لكي يحوله إلى ملفوظات؛ وحينها يمكن أن يصبح الكلام أو الملفوظ خطابا، ثم نصا؛ ولا سيما إذا تم تداوله كتابة، وهكذا يمثل النص منزلة دنيا إذا قيس بالكلام أو التلفظ، ولكن ما نلاحظه من الناحية التعليمية أن النص لا يتلقاه المتعلم كلاما عفويا، وإنما كتابة منتقاة في غالب الأمر؛ وبخاصة أن مثل هذه النصوص معبأة بالإيديولوجية قصد ترسيخ جملة من القيم التاريخية والوطنية لهذه الأمة أو تلك، وهو ما يحرص عليه القائمون على إنجاز البرامج وإعداد النصوص.

يعاب على مثل هذه النصوص أنها لا تدفع المتعلمين إلى إنتاج الكلام مما يسبب لهم عجزا واضحا في مجال القدرة على الحوار والتعبير مشافهة عما يكمن في أنفسهم، ويختلج في وجدانهم، وقد يعود السبب إلى ربط النص بالكتابة اعتقادا من القائمين على إعداد البرامج بأن اللغة المكتوبة لها الأولية في المدارس بدل اللغة المنطوقة؛ وهذا يمثل في حد ذاته صراعا بين ماضي الفيلولوجيا وحاضر اللسانيات المعاصرة.

تبدو لبعض هؤلاء أن حصص التعبير المباشر مرهقة للطفل ومخيبة للآمال من حيث المردود التربوي؛ ولا غرو أن نلاحظ فشلا ذريعا في إنشاء الطفل المتعلم تركيبا ودلالة وفقرا في المخزون المعجمي؛ ولا سيما أن المدرسة في منهجها التربوي التقليدي تحرص على تعليم الطفل الكتابة وقواعد اللغة قبل أن يتمكن من التحدث بطلاقة وسلاسة.

إن بناء الملكة اللسانية لديه على هذا النحو لا تسعفه على التحاور والتعامل باللغة دون عي أو صعوبة في الأداء اللغوي. وعليه ما فائدة هذه النصوص التي يتعلمها الناشئ؟ وما قيمة ما تقدمه إليه المدرسة؟ ولهذا كله يختفي من أدبيات الاستعمال التربوي مصطلح الخطاب، ويشيع في المقابل مصطلح النص لكونه تقييدا مكتوبا للغة. ونظرا لتباين مصطلحي النص والخطاب من منطلق تباين اللسانيات والفيلولوجيا؛ لهذا أكد علماء علم النفس المهتمين بأمراض الكلام أن نظام اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة مختلفان[1].

1- Voir Denis Girard, Linguistique appliquée et didactique des langues, Armand Colin, Paris, 1972, P9...

أصبحت اللسانيات المعاصرة بعامة واللسانيات التطبيقية بخاصة تؤدي دورا مهما في مجالات التعليم والتربية من حيث إمداد المختصين بالمناهج الإجرائية التي تساعدهم على دراسة الإنتاج اللغوي لدى كل من المعلمين والمدرسين وكذا التلاميذ والطلبة[1]. ولما كانت المجموعة اللغوية تتشكل بالأساس داخل أمة من الأمم انطلاقا من المدرسة بوصفها مؤسسة من مؤسسات الدولة؛ ولا غرو إذن أن تسهم اللسانيات الاجتماعية في مقاربة التحولات الاصطلاحية واللغوية داخل المؤسسات التربوية.

وبما أن تحليل الخطاب انبثق أول مرة من جلباب اللسانيات المعاصرة على الأقل في بدايته الأولى فإنه كان موضع اهتمام من قبل اللسانيات الاجتماعية كما أسلفنا القول، ثم موضع اهتمام من قبل اللسانيات التطبيقية لكون المدرسة تحاول أن ترسخ فيما معينة يحددها المجتمع سلفا إما مراعاة لقيمه الثقافية والاجتماعية وإما لبناء قيم جديدة تساعد الأمة على التطور والتقدم ومواكبة المجتمعات المتحضرة والمتقدمة؛ ومثل هذه المقاصد التي تساعد المحللين على استكشاف الغايات المرسومة تلفيها في الخطاب التربوي. فعن طريق تحليل الخطاب التربوي يمكن تحديد مرجعية أمة من الأمم الأخرى.

يتمثل الخطاب التربوي في خطاب قرارات الجهات الوصية الرسمية (المراسيم، والقوانين التنظيمية والتنفيذية، والتعليمات الخاصة مثل وزارات التربية والتعليم العالي والمديريات العامة والجهوية للتربية والمفتشيات العامة والجهوية ومديرو المؤسسات التعليمية بمختلف أطوارها وخطاب نقابات معلمي التعليم وعمالها، وكذا مذكرات المعلمين والمدرسين ومحاضرات الأساتذة. كل ذلك يشكل متن الخطاب التربوي، ويحتاج إلى تحليل بدوره للوقوف على القيم الثقافية والحضارية للمجتمعات.

هناك أربعة مستويات للخطاب التربوي يمكن تحديدها فيما يأتي:

1 – خطاب الإدارة: فهو خطاب منفذ لتشريعات الأمة وراع للتطبيق الأمثل لقوانينها وقراراتها وموجه لسياستها العامة وقائم على أداء الخدمات العامة المادية والمعنوية.

2 – خطاب النقابة: إنه خطاب مطلبي يدافع عن حقوق العمال ومكتسباتهم وتحسين أوضاعهم الاجتماعية والدعوة إلى ترقية أدائهم عن طريق توفير المتطلبات الضرورية والاحتياجات المادية اللازمة والتكوين المستمر لإطارات التربية وعمالها.

1- إن الإشارة هنا إلى المعلم والأستاذ وكذا التلميذ والطالب تريد تحديد أطوار التعليم فقط.

3 – خطاب المعلم: وهو خطاب معرفة بالدرجة الأولى تتجلى فيه المقاصد العامة لروح المجتمع و ثقافته وتطلعاته نحو التطور والنمو والتقدم وبناء مستقبل مشرق، كما تتجلى فيه - أيضا - السياسة التربوية العامة التي ترسمها المؤسسة الوصية من برامج وطرائق تعليمية ومناهج تربوية يكون المعلم والمدرس ملزما بتطبيقها. إن هذا الخطاب يعكس - أيضا - مستوى التكوين الذي تلقاها المعلم في المعاهد المختصة، ويبرز الإيديولوجية التي يتبناها.

4 - خطاب التلميذ: هو محصلة طبيعية للخطابات المذكورة آنفا، ولكن نادرا ما يؤخذ هذا الخطاب بعين الاعتبار في أثناء وضع السياسة التربوية العامة؛ ولعل هذا الخطاب يظهر نجاعة المقاصد الكبرى التي سطرتها المؤسسة التربوية من عدمها، وهو وحده الكفيل بالدعوة إلى إصلاح السياسة التربوية1 أو تغييرها لكون هذا الخطاب هو مدار الخطابات الأخرى.

يتعرف التلميذ إلى العالم ويبني شخصيته انطلاقا من اللغة التي يتلقاها من محيطه الاجتماعي المتمثل في البيت والشارع والمدرسة، حيث يكتسب معارفه ومهاراته انطلاقا من خطاب المعلم وخطاب الكتب المدرسية. أي أن المعرفة تنطلق من عمل اللغة التي يجسدها الخطاب تعليما وتعلما؛ ولهذا انبرت اللسانيات التطبيقية على تشييد جهاز مفاهيمي متماسك ووضع آليات ناجعة لتعليم اللغات. وقد أدرج بعض أهل الاختصاص2 تحليل الخطاب ضمن حوليات اللسانيات التطبيقية في القسم الثالث الخاص بتحاليل اللسان Les analyses de la langue وبصيغة التساؤل لماذا تحليل الخطاب؟ فدرسوا مكانة الخطاب وسط تطور اللسانيات، ثم تطرقوا إلى المنهجية الصورية التي طبقتها اللسانيات التوزيعية الأمريكية في تحليل الخطاب على يد ز. هاريس3، وبعدها توقفوا عند تحليل التلفظ.

إن المربي مطالب بتحديد موقفه من خلال علاقته باللغة أولا ثم علاقته بخطابه ثانيا ثم علاقته بخطاب التلميذ ثالثا4. فإذا وقفنا على علاقة المربي باللغة العربية موضع اهتمامنا فلابد

1- نستعمل السياسة التربوية بدل المنظومة التربوية لأن السياسة تقتضي عمل شرائح واسعة من المجتمع لا تكون بالضرورة منتمية إلى قطاع التربية والتعليم.

2- Manuel de linguistique appliquée, (ouvrage collectif coordonné par Frank. MARCHAND), Ed. Delagrave, Les analyses de la langue, T. 3,1979, PP.116,157.

3 - ينظر احمد يوسف، توزيعية هاريس والتحليل النسقي للخطاب، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع. 33، جويلية- سبتمبر 2004.

4 - Manuel de linguistique appliquée, op. cité , p. 117.

أن يجابه جملة من التحديات العويصة بين لغة عربية فصحى مقدسة لأن الوحي الإلهي نزل بها، وعمل على حفظها من الانقراض والموت واللغة العامية التي لها سلطان أقوى في البيت والشارع من العربية الفصحى التي تجابه تحولات كبيرة نظرا للتخلف المخيف للناطقين بها. والسؤال المطروح كيف نعمل على ترقية اللغة لتواكب مستجدات العصر؟ أو على الأصح كيف نرقى لكي ترقى معنا لغتنا؟! وهذا السؤال ليس في وسع هذه الدراسة مقاربته أو الإجابة عليه، ولكنه يطرح مسألة في غاية الأهمية وتتعلق بالخطاب الذي يرتكز بداهة على اللغة.

ونتيجة لما سبق سيكون خطاب المربي من بين الرهانات المطروحة على السياسة التربوية العامة التي تقر بالتدني الملحوظ لخطاب المعلمين والمدرسين وأساتذة الجامعة وحتى الأدباء والمثقفين. فأنى لهذا المربي الذي يحتاج إلى تكوين عميق وجدي وإعادة تأهيله بتطبيق مناهج تربوية وتعليمية فعالة من خبراء ومختصين أن يضطلع بمهماته الجسيمة؟ فلابد من تشجيعه على اكتساب معارف جديدة وعادات لغوية سليمة مواكبة للعصر حتى يثري خطابه الخاص من الناحية المعرفية والتربوية، ويحسن أداءها على نحو يكون له تأثير إيجابي ومباشر في خطاب المتعلم. فالمعرفة وحدها لا تؤدي إلى الأهداف التربوية المرجوة دون اكتساب مهارات تعليمية عصرية، فكم من مربي يعتقد أن خطابه يحقق أهدافه وفي الحقيقة أن ما يعتقده غير ما يتلفظ به!

تتلخص مهمة خطاب المربي في بناء خطاب المتعلم بتركيزه على الأداء السليم للخطاب الشفوي عن طريق مراعاة نتائج علم الأصوات العام وعلم الأصوات الوظيفي؛ وذلك بعدما يكون المربي متحكما ((في آلية الخطاب التعليمي))[1]، ثم تزويده بالعادات اللغوية والمعارف المختلفة التي تتناسب مع نضجه العقلي مع مراعاة الفروق الفردية واستكشاف القدرات اللغوية الخلاقة عند المتعلم، فينبغي أن يشجع على الإبداع بالتعبير الحر سواء بواسطة الخطاب الشفوي أو الخطاب المكتوب.

هناك سؤال يواجه الخطاب التعليمي ولا بد أن يحدد موقفه منه. هل يتعامل مع اللغة على أنها أداة تواصل لها وظيفة تعاملية أم أنه يتعامل معها أنها أكبر من أن تكون أداة تواصل فهي ذات وظيفة تفاعلية؟ صحيح أن بعض الدراسات اللسانية والسيميائية انحازت إلى البعد التواصلي للغة، بيد أن هناك بعض الاتجاهات في تحليل الخطاب غلبت الوظيفة التفاعلية على الوظيفة التعاملية وإن كانت هاتان الوظيفتان من الناحية العملية متكاملتين ومتداخلتين. فاللغة

1- أحمد حساني، دراسات في اللسانيات التطبيقية (حقل تعليمية اللغات)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2000، ص. 42.

حاملة لروح الأمة وفكرها حسب (هردر وهومبولدت) وأداة تواصلية حسب سيميائيات التواصل[1]؟ غير أننا نحسب أن التداوليات ستسهم لا محالة في حل بعض الإشكالات المطروحة في تحليل الخطاب.

يطرح مؤلفو حوليات اللسانيات التطبيقية أسئلة في غاية الأهمية كنا قد أشرنا إلى بعضها سابقا. منها على وجه الخصوص هل يكون "خطاب المدرسة" متجانسا مع نفسه أولا، ثم مع اللغة الطبيعية الموجودة في الشارع، وفي الأسرة وفي العالم الواقعي[2]؟ وهل المدرسة عالم اصطناعي مغلق لا علاقة له بالحياة الواقعية؟ وهذا السؤال مطروح طرحا حادا في الثقافة العربية المعاصرة. وغالبا ما تنتج عنه خطابات وثوقية وإيديولوجية لا تسهم في خطاب تربوي علمي وعقلاني.

1 - ينظر أحمد يوسف، سيميائيات التواصل وفعالية الحوار، المفاهيم والآليات، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، س. بلعباس، الجزائر، 2004.

2 - Manuel de linguistique appliquée, (ouvrage collectif coordonné par Frank. MARCHAND), Ed. Delagrave, Les analyses de la langue, T. 3,1979, P.117.